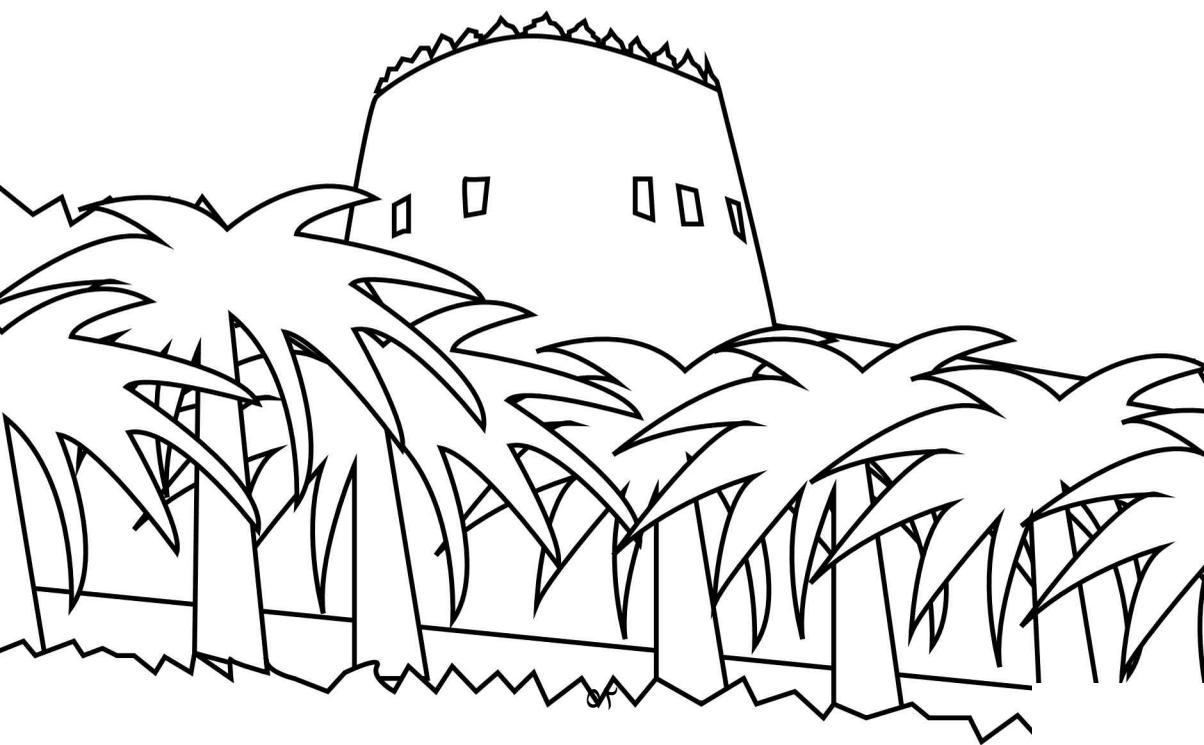


الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته



١ - أسرته ومولده:

ينتمي الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى أسرة تُسَمَّى آل مُشَرَّف. وهذه الأسرة فرع من فروع آل وَهَبَة، أحد بطون قبيلة بني تميم المشهورة^(١). وكان مُشَرَّف الجد التاسع للشيخ محمد حسب الروايات الراجحة. فهو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن أحمد بن راشد بن بُريد بن محمد بن بُريد بن مُشَرَّف^(٢).

وكانت أسرة آل مُشَرَّف تسكن في بلدة أشيقر. ومن هناك انتقل بعض أفرادها إلى بلدان نجدية أخرى. ولقد اشتهرت تلك الأسرة بالعلم. فمنذ القرن العاشر الهجري والمصادر تتحدَّث عن علماء منها. ذلك أن الشيخ عبد القادر بن بُريد بن مُشَرَّف كان قاضياً، وكان من بين ستة علماء حُكِّموا في مسألة الخلاف الذي وقع بين الفقيهين النجديين أحمد بن عَطْوَة وعبد الله بن رَحْمَة^(٣). وكان أحمد بن محمد بن مُشَرَّف أحد تلاميذ العلَّامة موسى الحجاوي في دمشق، كما كان أحد أستاذة العالمين الجليلين محمد بن إسماعيل وسليمان بن علي^(٤).

وكان أكبر عالم ظهر في نجد خلال القرن الحادي عشر الهجري سليمان بن علي جد الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(٥). وقد تولى القضاء في روضة سدير. ثم انتقل إلى العيينة حيث أصبح قاضياً لها وشيخاً لعدد من طلاب العلم، بينهم ابنه عبد الوهاب وإبراهيم^(٦).

(١) عن فروع آل وَهَبَة انظر ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث، ص ٢٠٥ - ٢٣١.

(٢) ابن غنَّام، ج ١، ص ٢٥؛ ابن بشر، ج ١، ص ١٢٢؛ ابن عيسى، تاريخ بعض الحوادث، ص ١٢٥؛ عبد اللطيف ابن عبد الرحمن، مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، المنار، القاهرة، ١٣٤٤هـ، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٣) ابن بشر، ج ٢، ص ١٩٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٤، ٢٠٨ و ٢١٠.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٠.

(٦) الشيخ البسام، ج ١، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

وكان عبد الوهاب بن سليمان، والد الشيخ محمد، على درجة علمية أهّلتَه ليصبح قاضيًا في بلدة العيينة^(١). لكن مكانته العلمية لم تبلغ، على أيِّ حال، ما بلغته مكانة أبيه سليمان.

والمصادر التاريخية لا تذكر شيئًا مُحدِّدًا عن الوضع الاقتصادي لأسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. لكن من المرجح أن ذلك الوضع كان فوق متوسط وضع الأسرة العادية. ذلك أن كثيرًا من أفراد الأسرة تولَّوا مناصب قضائية، وكان القضاء عملاً ذا دخل يرجح أنه جيد. ومن الواضح أن دخل أسرة الشيخ محمد كان كافيًا لإتاحة الفرصة لصغار أفرادها، ليتفرَّغوا لطلب العلم.

وهكذا وُلِدَ الشيخ محمد في أسرة علمية بادية الثراء، أو على الأقلِّ ميسورة الحال. وكان مولده في بلدة العيينة سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م^(٢).

٢ - نشأته ودراسته الأولى:

المعلومات المتعلقة بنشأة الشيخ محمد قليلة جدًا. وعلى أيِّ حال فقد جرت العادة، في تلك الفترة، أن يتبع الأبناء سيرة الآباء في كثير من اتجاهات الحياة. ولذلك كان أبناء العلماء، في الغالب، يسلكون طريقة آبائهم في الدراسة والاشتغال بالعلم. وكان أولئك الآباء يُشجِّعون أبناءهم على ذلك. وكما شجَّع سليمان بن علي ابنيه عبد الوهاب وإبراهيم على طلب العلم، وقرَّ لهما سبيله، قام ابنه عبد الوهاب بمثل ما قام به تجاه ولديه محمد وسليمان^(٣).

(١) ابن بشر، ج ٢، ص ٢٣٨.

(٢) ابن غنَّام، ج ١، ص ٢١؛ الفاخري، ص ٩١؛ ابن بشر، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٣) الشيخ البسام، ج ٣، ص ٦٧٠.

ولقد أظهر محمد بن عبد الوهاب رغبة عظيمة في التعلُّم منذ صغره لدرجة أنه لم يكن يمارس ما كان يمارسه الأطفال في مثل سنِّه من لهو ولعب^(١). وكان أوَّل شيء اتَّجه إليه في بداية مسيرته العلمية هو القرآن الكريم. ويقال: إنه حفظه قبل بلوغه سن العاشرة من عمره^(٢). وبعد أن انتهى من هذه المهمَّة شرع في دراسة العلوم الشرعية الأخرى؛ وبخاصة الفقه الحنبلي الذي أخذ يدرسه على أبيه عبد الوهاب^(٣).

ولقد تهيَّأت للشيخ محمد عوامل ساعدته على سرعة التحصيل والنجاح في الدراسة. ومن هذه العوامل ما كان عائداً إلى شخصيته ذاتها، ومنها ما كان عائداً إلى البيئة الأسرية التي نشأ فيها. فقد كان ذكياً قويَّ الذاكرة شغوفاً بالعلم^(٤). وكان أبوه الفقيه القاضي يحثُّه على الدراسة ويرشده إلى طريق المعرفة. وكان عمه إبراهيم فقيهاً^(٥)، كما كان أخوه سليمان وابن عمه عبد الرحمن بن إبراهيم يطلبان العلم^(٦). وبما أن أباه كان قاضي البلدة، فإن منزله كان - في أغلب الأحيان - ملتقى طلاب العلم؛ سواء كانوا من أهل البلدة ذاتها، أو ممن يفدون إليها من بلدان أخرى. وكانت اجتماعات هؤلاء وأولئك تتخلَّلها مناقشات علمية. وحضور الشيخ محمد تلك المناقشات كان من الأمور التي تضيف إلى معلوماته الشيء المفيد. ومن المرجح أنه كان على علم بأحكام أبيه القاضي في بعض القضايا. وهذا أمر له أهميته بالنسبة لتوسيع مداركه.

(١) ابن غنَّام، ج ١، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٥) انظر ترجمة إبراهيم لدى الشيخ البسام، ج ١، ص ١١٠ - ١١١.

(٦) عن سليمان وعبد الرحمن، انظر المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٢ - ٣٠٦ و ٢، ص ٣٨٢.

ونتيجة لكل ما سبق نجح محمد بن عبد الوهاب في خطواته العلمية الأولى نجاحاً عبّر عن مداه أبوه بقوله: «لقد استفدت من ولدي محمد فوائد من الأحكام قبل بلوغه»^(١). وكان بلوغه -على غير عادة الكثيرين- في الثانية عشرة من عمره. ولذلك زوّجه والده في تلك السن، كما قام بحجه الأول^(٢).

ومن المرجح أن الشيخ محمدًا قد تأثر كثيراً بما شاهده في المسجد الحرام من حلقات طلاب العلم حول علماء يُدرّسون مختلف المعلومات النافعة، وبما رآه من حلقات الناس حول الوعاظ المتعديدين، وبما لاحظته من وحدة إسلامية مُتجَلِّية في مشاعر الحج. وحين قضى حجه سافر إلى المدينة المنورة، حيث بقي هناك مدة لم تتجاوز شهرين. ولعلّه تعرّف خلال إقامته هناك بالشيخ عبدالله بن سيف، الذي أصبح أحد أساتذته في المستقبل^(٣).

وبعد رجوع الشيخ محمد من حجه وزيارته للمدينة المنورة إلى العُيَينة واصل مثابرتة على التعلم. ومع مواصلته دراسة الفقه أخذ يقرأ في كتب التفسير والحديث والتوحيد. وكان يفهم ما يقرأ فهمًا جيدًا^(٤). ولكن المناخ التعليمي في العُيَينة كان بعيداً كل البعد عن إشباع طموحه المتحفّز إلى مزيد من المعرفة. وعلى هذا الأساس عقد العزم على البحث عن ضالته في أمكنة أخرى.

٣- سفره لطلب العلم:

كانت الانطباعات التي تكوّنت لدى الشيخ محمد إبان حجه الأول لا تزال عالقة في ذهنه حينما همّ بمغادرة العُيَينة لمواصلة تعلّمه. وكان ما رآه في

(١) ابن غنّام، ج ١، ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦.

(٣) عن ابن سيف انظر الشيخ البسام، ج ٢، ص ٥٠٥ - ٥٠٦.

(٤) ابن بشر، ج ١، ص ٢٠.

الحرمين الشريفين من حلقات العلم والوعاظ كافيًا لإقناعه بأن تكون خطوته الأولى في أسفاره العلمية إلى الحجاز. وهكذا سافر إلى مكة المكرمة حيث حج مرة ثانية. ومع احتمال بقائه في تلك البلدة المقدّسة بعد الحج للدراسة، فإن المصادر لا تذكر دراسته على علماء فيها. ولعلّه لم يمكث هناك مدة تستحق العناية والتسجيل. على أنه ما لبث أن سافر من مكة إلى المدينة، حيث بدأ مرحلة مُهمّة من مراحل دراسته.

وكانت المدينة المنورة ملتقى العلماء وطلاب العلم من الأقطار الإسلامية المختلفة. وكان بعض هؤلاء يأتون ويستقرون فيها للمجاورة. أما البعض الآخر فيقدمون إليها ويمكثون فيها فترة، ثم يغادرونها عائدين إلى أوطانهم. ومع أنه من المرجح أن الشيخ محمدًا قد حضر دروس عدة علماء في المسجد النبوي، فإن صلته بالشيخين عبدالله بن سيف ومحمد حياة السندي كانت أوثق وأعمق من صلته بأيّ عالم غيرهما^(١). وكان لهذين العالمين الجليلين أثر كبير على الشيخ محمد لا بالنسبة لتحصيله العلمي فحسب، وإنما بالنسبة لاتجاه الإصلاحية أيضًا؛ وبخاصة أن صلته بهما قد تمّت وهو في مرحلة من مراحل عمره القابلة للتأثر والتوجيه.

كان ابن سيف من بلدة المَجَمعة في نجد. وكان عالمًا بالفقه الحنبلي والحديث الشريف، كما كان مُعجَبًا بشيخ الإسلام ابن تيمية. ولا شك أنه شجّع تلميذه على قراءة كتب ذلك العالم الجليل.

أما محمد حياة السندي فكان علامة في الحديث وعلومه. وكان من الداعين إلى الاجتهاد في الشريعة، ومن المعارضين للتعصب المذهبي. وإضافة

(١) ممن ذكرت المصادر دراسة الشيخ محمد عليه إسماعيل العجلوني. انظر سليمان بن عبدالله: التوضيح من توحيد الخلاق في جواب أهل العراق...، القاهرة، ١٣١٩هـ، ص ١٧.

إلى ذلك، فإنه كان من أشدّ المحاربين للبدع في الدين وللأعمال التي قد تُؤدّي إلى الشرك^(١). وكل هذه الأفكار والمواقف تتطابق مع الأفكار والمواقف التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيما بعد.

ولا تذكر المصادر التي تحدّثت عن حياة الشيخ محمد طول المدة التي قضاها في المدينة المنورة. وحينما عاد منها إلى العيينة كانت قد تبلورت لديه فكرة المناداة بالإصلاح، لكنه لم يصبح بعدُ مؤهلاً تأهيلاً كافياً من الناحية العلمية. ولذلك فإن إنكاره لبعض الأمور التي لا تتفق مع الدين الإسلامي الخالص كان محدوداً في مداه وفي تأثيره على الآخرين^(٢). وإدراكاً منه لوجوب إكمال تأهيله العلمي من ناحية، ولعدم تأثير أقواله على ذوي الشأن في بلدته من ناحية ثانية، قرّر أن يسافر مرة أخرى لطلب العلم.

وكانت البصرة البلدة التي اتّجه إليها محمد بن عبد الوهاب بعد إقامته في العيينة سنة واحدة تقريباً منذ عودته إليها من المدينة^(٣). وقد درس في البصرة الفقه والحديث على عدد من علمائها. لكن العالم محمدًا المجموعي كان الشيخ الذي لازمه أكثر من غيره. على أنه درس إلى جانب العلمين السابقين قواعد اللغة العربية حتى أتقنها^(٤). وفي ذلك ما فيه من منفعة لمن كان يُعِدُّ نفسه ليصبح قائد دعوة، تحتاج إلى من يكتب مُرغّباً فيها ومدافعاً عنها.

والبصرة - كما هو معروف - ميناء تجاري تلتقي فيه طوائف مجتمعات مختلفة. ومن المرجح أنه كان فيها كثير من الأمور التي تتعارض مع نظرة رجل

(١) انظر عن تأثير السندي على عدد من دعاة الإصلاح، مقال جون فول، الذي ترجمة عنوانه: «محمد حياة السندي ومحمد بن عبد الوهاب...»، مجلة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية، لندن ١٩٧٥ م، ص ٣٢ - ٣٩.

(٢) ابن بشر، ج ١، ص ٢٠.

(٣) عبد الرحمن آل الشيخ، ص ٧.

(٤) ابن غنّام، ج ١، ص ٢٧.

قادم من بلدة صغيرة كالعُيَينة، ومجتمع محافظ كالمجتمع النجدي حينذاك. وكان فيها، أيضاً، كثير من الشيعة. ومن المعروف ما بين هؤلاء وبين السنّة المحافظين من اختلاف في وجهات النظر في المسائل الدينية. وفي ظل تلك الظروف بدأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ينكر ما يعتقد أنه مخالف للحق^(١). وهكذا لم يعد مجرد طالب علم في تلك المدينة، وإنما أصبح داعية يعظ فيُستَمع إليه. ومن الواضح أن جوّاً اجتماعياً كَجوّ البصرة لا بد أن يكون مؤيدو الشيخ محمد فيه أقلّ بكثير من معارضيهِ. وقد أصبحت المناقشات بينه وبين خصومه حادة ومثيرة. وكان أكثرها حِدّة وإثارة ما يتعلّق بالعقيدة وقضية التوحيد والشرك. ونتيجة لذلك رأى المسؤولون هناك أنه مثير للقلق، واضطروه إلى مغادرة البصرة^(٢).

ومرّة أخرى لا تُحدّد المصادر الموثوقة طول المدة التي قضاها الشيخ محمد في البصرة. لكن منها ما يفيد بأنها كانت أطول إقامة له خارج وطنه^(٣). وقد مرّ بالزبير بعد خروجه من البصرة، لكنه لم يمكث فيها طويلاً^(٤).

وكانت الأحساء من المناطق التي زارها الشيخ محمد، وأقام فيها بعض الوقت^(٥). ولعلّه استفاد من علمائها في بعض الأمور الشرعية. وقد ناقش عدداً من أولئك العلماء في شؤون التوحيد والعقيدة^(٦). ومن بين هؤلاء عبد الله بن فيروز، ومحمد بن عفالق، وعبد الله بن عبد اللطيف^(٧).

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) ابن بشر، ج ١، ص ٢١.

(٣) ابن غنّام، ج ١، ص ٢٧.

(٤) ابن بشر، ج ١، ص ٢١.

(٥) ابن غنّام، ج ١، ص ٢٦؛ سليمان بن عبد الله، ص ١٦.

(٦) ابن غنّام، ج ١، ص ٢٦.

(٧) عن ابن فيروز وابن عفالق انظر الشيخ البسام، ج ٣، ص ٨١٨ - ٨٢١، ٨٨٢ - ٨٨٦.

وقد عاد الشيخ محمد في نهاية المطاف إلى نجد منهيًا بذلك، رحلاته العلمية. وكان أبوه عبد الوهاب قد عُزل عن قضاء العيينة سنة ١١٣٩ هـ، فانتقل إلى حُرَيْملاء، حيث أصبح قاضيًا لها^(١)، وبذلك اتَّجه الشيخ محمد إلى هذه البلدة ليلتحق بأبيه وأسرته^(٢).

والمصادر الموثوقة المقرَّبة من الشيخ محمد لا تذكر أن رحلاته العلمية خارج نجد تجاوزت ثلاثة أمكنة: الحجاز، والأحساء، والبصرة^(٣). لكن بعض المصادر أشارت إلى أنه سافر إلى بلدان أخرى في العراق والشام وفارس^(٤). غير أن النتيجة التي يصل إليها الباحث من خلال مقارنة جميع المصادر هي الأخذ برواية المؤرخين المؤيدين للشيخ محمد المقرَّبين منه. وذلك لسببين: أحدهما: أنهم أدري بتفاصيل حياته من غيرهم، وثانيهما: أنهم حرصوا كل الحرص على تدوين فضائله. ومن المعروف أن السفر في طلب العلم فضيلة. ولو سافر الشيخ محمد إلى بلدان غير التي ذكروها، لما تردَّدوا في تدوين ذلك وتفصيله، إظهارًا لفضله.

٤ - بداية دعوته في نجد وأهدافها :

من المرجح أن وصول الشيخ محمد إلى حُرَيْملاء بعد عودته من أسفاره خارج نجد كان بين سنتي ١١٤٤ هـ و١١٤٩ هـ^(٥). ومن الواضح أنه كان حينذاك

(١) ابن بشر، ج ١، ص ٢١، وج ٢، ص ٢٣٨.

(٢) ابن غنَّام، ج ١، ص ٢٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦ - ٢٨؛ ابن بشر، ج ١، ص ٢٠ - ٢١؛ سليمان بن عبد الله، ص ١٦؛ عبد الرحمن بن حسن، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الثانية، الرياض، ١٣٨٨ هـ، ج ٩، ص ٢١٦.

(٤) من هؤلاء نيبور في كتابه، الذي ترجمة عنوانه: رحلات عبر بلاد العرب وأقطار أخرى في الشرق، الذي ترجمه إلى الإنجليزية هيرون، ادنبرا، ١٧٩٢ م، ج ٢، ص ١٣١، ومؤلف مع الشهاب...، ص ٥ - ١٦.

(٥) انظر مناقشة المسألة في كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حياته، وفكره، لمبد الله العثيمين، ط ٢، دار العلوم بالرياض، ١٤١٢ هـ، ص ٣٩ - ٤٠.

في مستوى علمي جيد يُؤهلُه لبداية دعوته الإصلاحية بنجاح. وحينما بدأ تلك الدعوة انقسم الناس حولها إلى فريقين: مُؤيِّد ومعارض. وكان المؤيِّدون لها أقلَّ من المعارضين بكثير. لكنهم كانوا مُتحمِّسين للسير مع الداعية في طريق الإصلاح مهما كانت النتائج^(١). وممن اختلف مع الشيخ محمد في تلك الفترة أبوه عبد الوهاب^(٢). لكن الخلاف بينهما كان، فيما يبدو، حول أسلوب الدعوة لا جوهرها. وقد ألف الشيخ محمد وهو في حُرَيْملاء كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد^(٣). ولقي هذا الكتاب رواجًا كبيرًا، وانتشرت نسخ منه في مختلف بلدان المنطقة^(٤).

ولعلَّ أهمَّ ما تهدف إليه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، ومحاربة الشرك بجميع أنواعه، وسدُّ الذرائع المؤدِّية إليه. ومن أبرز أهدافها، أيضًا، القضاء على البدع في الدين، وتطبيق الشريعة الإسلامية في كل أمور الحياة؛ وذلك في ظلِّ دولة قادرة على تحقيق تلك الأهداف^(٥).

وبعد وفاة عبد الوهاب بن سليمان، سنة ١١٥٣ هـ، ازداد إنكار ابنه الشيخ محمد لما يراه باطلاً، وانتشرت دعوته أكثر من ذي قبل في المنطقة كلها، حتى بدأ بعض أنصاره يفدون إليه، وبدأ عدد من الأمراء يصفون لما ينادي به. وممن قبل دعوته حينذاك أمير العيينة عثمان بن مُعمر^(٦).

(١) ابن غنَّام، ج ١، ص ٢٩.

(٢) ابن بشر، ج ١، ص ٢١.

(٣) طبع أول مرَّة ضمن مجموعة التوحيد في دلهي، ١٣٠٨ هـ، ثم تكرَّرت طباعته. ولأهميَّته من ناحية، واختصاره من ناحية أخرى، كثرت الشروح له والتعليقات عليه.

(٤) عبد الرحمن آل الشيخ، ص ٩.

(٥) الفصل الخامس من كتاب العثميين، الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره، يناقش مبادئ الدعوة، ص ١٠١ - ١٣٩.

(٦) ابن غنَّام، ج ١، ص ٣٠.

٥ - انتقاله إلى العيينة وبداية تطبيق الدعوة:

من المرجح صحة القصة التي رواها ابن بشر عن محاولة الاعتداء على الشيخ محمد في حريملاء من قبل أناس عزم ذلك الشيخ على تأديبهم لمزاوتهم أعمالاً قبيحة^(١). لكن من المرجح، أيضاً، أن تلك المحاولة لم تكن السبب الأكبر في انتقاله من البلدة المذكورة إلى العيينة. بل كان السبب الجوهرى لذلك الانتقال هو قبول عثمان بن معمر للدعوة، كما ذكر سابقاً. ومن الأسباب الأخرى أن العيينة كانت أقوى من حريملاء المنقسمة حينذاك إلى فئتين، لا تعترف إحداهما بزعامة الثانية على البلدة^(٢)، وأن العيينة مسقط رأس الشيخ ومكان نشأته الأولى، وفي ذلك ما فيه من ميله النفسى إليها. وكان انتقاله إلى هذه البلدة سنة ١١٥٤ هـ. وحين وصل إليها رحب به أميرها عثمان كل الترحيب، وأكرمه غاية الإكرام. وأمر أتباعه أن ينفذوا ما أمرهم به^(٣). ثم تزوج الشيخ عمه الأمير عثمان، الجوهرة بنت عبد الله بن معمر، التي كانت لها مكانة رفيعة في الحياة العامة^(٤). وازدادت بذلك أواصر التقارب بين الأمير والشيخ وبين أسرة كل منهما.

وهكذا اجتمع الجو المناسب مع ما كان للشيخ محمد من سمعة طيبة وتأهيل جيد، فأصبحت فرص النجاح لدعوته كبيرة جداً، وقد ازداد عدد المنضمين إلى تلك الدعوة من أهل العيينة وما حولها بسرعة^(٥)، وأصبح هو في وضع يتيح له أن يبدأ بتطبيق ما سبق أن نادى به من آراء. فقام هو وأنصاره بقطع الأشجار التي يتوسل بها الجهال، وهدم القبة المبنية على قبر في الجبيلة، يظن كثير من الناس

(١) ابن بشر، ج ١، ص ٢٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) ابن غنّام، ج ١، ص ٣٠.

(٤) ابن بشر، ج ١، ص ١٢٢. وانظر عن دورها في الحياة العامة المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣٧.

(٥) ابن غنّام، ج ١، ص ٣٠.

أنه قبر زيد بن الخطاب رضي الله عنه. وكان بعض الجهلة من العامة يتبركون بتلك القبّة، ويقدمون النذور إليها^(١).

ومن الأمور المهمّة التي قام بها الشيخ محمد في العيّنة معاقبة من لا يؤدّون الصلاة جماعة في المساجد، وإرسال الدعاة إلى البلدان النجدية القريبة من تلك البلدة لنشر دعوته^(٢). لكن من أعظم الأعمال التي قام بها، فهزّت المجتمع، رحمه لامرأة توافرت لديه شروط رجمها^(٣). وكانت تلك الأعمال بمثابة إعلان بداية دعوته عملياً، ودخولها إلى مرحلة جديدة مهمّة.

٦- ردود الفعل لتطبيق الدعوة:

سبق أن ذكر انقسام الناس حول دعوة الشيخ محمد إلى مؤيدين ومعارضين منذ بداية تلك الدعوة في بلدة حريملاء. وكان في طليعة هؤلاء وأولئك العلماء المحليون. ولعلّ أهمّ سبب للتأييد أو المعارضة الاقتناع الشخصي بصحة مبادئ الدعوة أو عدم صحتها. لكن حينما دخلت الدعوة مرحلة التطبيق ازداد نشاط معارضيها، وانضم إليهم عدد قليل ممن سبق أن اعترفوا بصحتها^(٤). ويبدو أن هؤلاء كانوا غير معارضين للخطوط العريضة، التي أكدها الشيخ محمد للتوحيد والشرك. فلما طبّق ما كان يدعو إليه اختلفوا معه. ولعلّ من أسباب

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها: ابن بشر، ج ١، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) ابن غنّام، ج ١، ص ٥٥ و ١٤٠ - ١٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢؛ ابن بشر، ج ١، ص ٢٣، وقد أوضح ابن غنّام أهمية تلك الحادثة، وأفاض في ذكر ردود الفعل نتيجة لها، كما أشار إلى ما حدث من نقاش حولها بين أنصار الدعوة وخصومها على أن مجيء المرأة إلى الشيخ واعترافها المتكرر طوعاً، مع احتمال معرفتها بما قد ينتج عن ذلك من عقوبة، من الأمور التي تدل على عمق أثر الدعوة في نفوس المجتمع الجديد. ذلك أنه من المتوقع دائماً أن يقع انحراف بين أفراد من المجتمعات. لكن أن يصل الندم بمن انحرف إلى هذا المستوى أمر لافت للنظر.

(٤) ابن غنّام، ج ١، ص ١١٤ و ص ١٤٠.

معارضة بعض المعارضين إنكار الشيخ محمد على من اعتاد أن يأخذ أجوراً من المتخاصمين مقابل الفصل بينهم، وعدّه ذلك رشوة^(١). على أن من تلك الأسباب خوف بعض العلماء من هبوط مكانتهم الاجتماعية. فقد رأوا أن الناس سوف يسألون: هل كان هؤلاء العلماء يعرفون خطأ ما تزاوله العامة من أمور أنكرها الشيخ ولم يُبينوه لهم، أو كانوا لا يعرفون حكم هذه الأمور؟ فإن كانوا يعرفون ذلك وأخفوه فهم غير مخلصين. وإن كانوا لا يعرفونه مع أهميته فهم جهلاء بالدين. وكلا الأمرين سيجعل الناس يحتقرونهم اجتماعياً. وقد فسّر الشيخ محمد ذلك بالبغي^(٢).

وكان في طليعة المعارضين من علماء نجد للشيخ محمد في تلك الفترة سليمان بن سحيم من الرياض، وعبدالله المؤيس من حرمة^(٣). لكن معارضة من عارض الدعوة من العلماء النجديين لم تستطع أن توقف مسيرتها أو تحدّ من تقدّمها. وإدراكاً من أولئك المعارضين لضعف موقفهم بذلوا نشاطاً كبيراً ليؤلّبوا العلماء من خارج نجد ضد تلك الدعوة. وكان من ذلك النشاط إرسال سليمان بن سحيم رسالة إلى علماء البصرة والأحساء هاجم فيها الشيخ محمداً، وعدّد ما أخذه عليه، واستنهض همهم للرد على دعوته^(٤). وقد لقيت تلك الرسالة آذاناً صاغية لدى بعض علماء البلديتين المذكورتين، وكتبوا ردوداً قامت المعارضة النجدية بترويجها بين السكان^(٥). لكن جميع محاولات العلماء المعارضين للدعوة من داخل نجد ومن خارجها فشلت فشلاً ذريعاً فيما هدفت إليه.

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٤.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) انظر تَرْجَمَتِي هذين الرجلين لدى الشيخ البسام، ج ١، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ و ج ٢، ص ٦٠٤ - ٦٠٦.

(٤) نص هذه الرسالة لدى ابن غنّام، ج ١، ص ١١٠ - ١١٣.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٦.

وحين أدرك المعارضون لدعوة الشيخ محمد فشل محاولاتهم الجدلية رأوا أن يعمدوا إلى استعمال أسلوب آخر للقضاء عليه. فاتَّجَّهوا إلى الأمراء، وأغروهم بوضع حَدِّ لها لئلا يستفحل خطرهما - على حَدِّ زعمهم - مُحذِّرين بأن من أهدافها إثارة العامة على الخاصة والزعماء^(١). وكان أهمُّ أمير اتَّجه إليه المعارضون سليمان بن محمد آل حُمَيد، زعيم بني خالد وحاكم الأحساء. ذلك أن الأحساء، بموقعها وبموانئها، كانت مُهمَّة من الناحية الاقتصادية لسكان نجد بعامة ولسكان العارض بخاصة. وكانت العلاقات بين الزعامة الخالدية وآل مُعَمَّر قوية جدًّا. وكان سليمان بن محمد بالذات يدفع معونة مالية كل سنة إلى الأمير عثمان بن مُعَمَّر^(٢). وكان لعثمان - إضافة إلى ذلك - مزرعة في الأحساء تدرُّ عليه دخلًا لا بأس به^(٣). وكل هذه أمور يمكن أن تستعمل في الضغط على أمير العيينة، ليتخلَّى عن تأييده للشيخ محمد ودعوته.

وقد نجح المعارضون للدعوة من العلماء في إقناع الزعيم الخالدي برأيهم، وكسبوه إلى جانبهم. فكتب ذلك الزعيم رسالة إلى عثمان بن مُعَمَّر يطلب منه أن يتخلَّص من الشيخ محمد. وقد هدَّده - إن هولم يقوم بما طلب منه - بقطع معونته الاقتصادية، ومنعه من استلام دخل مزرعته، وعدم السماح لتجار بلده بدخول الأحساء واستخدام موانئها^(٤).

وإدراكًا من عثمان بن مُعَمَّر لخطورة ما هدَّده به الزعيم الخالدي، وخوفًا من اتِّخاذ إجراءات عسكرية ضده، أخبر الشيخ محمدًا بأن عليه أن يترك

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣.

(٢) ابن بشر، ج ١، ص ٢٣.

(٣) مع الشهاب، ص ٣١.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

بلدته^(١). ولم تنجح محاولات الشيخ في إقناعه بالصمود أمام تهديدات الحاكم الأحسائي ورفض أوامره^(٢). وبات على الشيخ محمد في نهاية الأمر أن يغادر البلدة التي شهدت بداية تطبيق دعوته وازدياد شهرته داخل نجد وخارجها.

(١) ابن غنّام، ج ٢، ص ٣؛ ابن بشر، ج ١، ص ٢٣.

(٢) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها.